

ينطوى موضوع المجاز على أهمية خاصة لعلاقته الحميمة بالتعبير الفنى ، وارتباطه بأمناط الصورة كما نراها تتجاوز الأشكال المحصورة في علم البيان . إن كثيرا مما يقال عن المجاز قد وجد له مكانا تحت عنوان « الاستعارة » باعتبارها مجازا علاقته المشابهة ، أو هي مع الكناية تمثلان المجاز اللغوى ، قسم المجاز العقلى الذى قال به عبد القاهر ، وهذا الأخير يدخل في منطقة الظل ولا يحظى بكثير من الاهتمام ، ربما لأن العلاقة والقرائن « العقلية » تلقى بظلمها - ولا نقول بضوئها - التجريدى وآليتها على حدس البلاغى ، فتجعله يتوهم - ربما - أنها عملية مضادة لروح الأسلوب الفنى المتمرد على العلاقات العقلية ، المكتشف لعلاقاته الأعمق ارتباطا بروح الإدراك الإنسانى الفطرى^(١) .

ولكى يفهم معنى « المجاز » وحدّه الاصطلاحى فإنه يوضع دائما في مقابل « الحقيقة » فهناك الدلالة الحقيقية للكلمة ، كما تشيع في العرف اللغوى أو بين مجموعة من الناس ، وهناك الدلالة الخاصة التى يصطنعها الفرد لهدف معين ، ولأن هذه الدلالة المجازية ليست الأصل فى الاستعمال وإنما هى الاستثناء ، فقد أحيطت بشرطين قصد بهما حماية الدلالة الأصلية وعقال الابتكار الفردى بتحديد حرته فى اللعب باللغة ، فكانت العلاقة والقرينة شرطين لصحة المجاز . وهما معا يمكن اعتبارهما ميدان التناحر بين الذاتى والموضوعى فى التعبير المجازى ، وأبنا كان موقع الغلبة فى هذا الميدان ، فإن هذه الخاصية ستبقى من إمكانيات المجاز وما يتفرع عنه من رمز وأسطورة ، دون غيره .

وللمجاز دواع فطرية ودوافع عملية حين يلجأ إليه المتكلم العادى ، وستضاف أسباب عديدة لتجعل منه دعامة التعبير الفنى ولغة طبيعية للشعر بخاصة . ولقد عبر القاضى الجرجانى - فى معرض دفاعه عن المحدثين - عن محنة المسبوقين وحاجتهم إلى اكتشاف طريق خاص بهم يمضى بين مكروهين : الانصياع المطلق للتقاليد التعبيرية وهو أمر له مبرراته بالنسبة للمتكلم العام إذ اللغة عرف اجتماعى وليست صناعة فردية أو خاصة ، ولكن هذا الانصياع يلغى امتياز

(١) يقول مهدي السامرائى معللا : « ربما يكون الدافع إلى هذه الاستعاضة أن كلمة استعارة أكثر موافقة لمضون النقل من كلمة مجاز ، إذ أن الكلمة الأولى توحى بصورة مباشرة بمعنى الإعارة ، ومن مفاهيم الإعارة نقل شئ من مالك حقيقى إلى شخص مستعير » - المجاز فى البلاغة العربية ص ٧٥ - وواضح أن هذا التعليل لم يحل القضية ، إذ يتعلق بالمجاز اللغوى دون المجاز العقلى .